ومنذ أواخر القرن الثامن عشر كانت هناك حركة سير وانتقال بين هذين المعنيين ، حيث تميزت هذه الحركة بانضباطها البارز تماما ، وربما خضعت للضبط والتنظيم . وهنا نصل إلى المعنى الثالث من معاني الاستشراق ، وهو معنى يتسم بتحديد تاريخي ومادي اكثر من أي واحد من المعنيين السابقين ! فلو أخذنا أواخر القرن الثامن عشر كنقطة بدء محددة تحديدا أوليا جدا ، يمكن بحث الاستشراق وتحليله بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق ــ التعامل معه بواسطة اطلاق الأقوال البيانية عنه ، واضفاء طابع الثقة على أراء حوله ، وصف الشرق وتدريسه واستيطانه وتوطينه ، وممارسة الحكم عليه : وباختصار ، فالاستشراق بمعناه الثالث هو أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واعادة تكوينه وامتلاك السلطة عليه . ولقد وجدت من النافع هنا استخدام مفهوم ميشال فوكو عن المقالة (Discourse) للتعريف بهوية الاستشراق (وهو مفهوم وصفه فوكو في كتابين له هما : « علم آثار المعرفة »* Archaeal ogy and K now Ledge و « المراقبة والعقاب » Discipline and Punish ويقوم ادعائي على القول إنه بدون تفحص الاستشراق كمقالة Discourse لا يمكن للمرء ان يفهم حقل الانضباط والدراسة المنهجي الضخم الذي استطاعت الحضارة الأوروبية بواسطته أن تدير ــ وحتى ان تنتج ــ الشرق سياسيا وسوسيولوجيا وعسكريا وأيديولوجيا وعلميا وتخيليا خلال فترة ما بعد عصر التنوير . وعلاوة على ذلك فان الاستشراق تمتع بمركز من الثقة والسلطة الى درجة تحملني على الاعتقاد إنه ما من أحد كتب عن الشرق أو فكر به أو اتخذ القرار بشأنه قد استطاع أن يفعل ذلك دون ان يأخذ بعين الاعتبار الحدود التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل . وخلاصة القول ، فان الشرق لم يكن (وليس هو) ، بسبب الاستشراق ، موضوعا حرا للتفكير أو الفعل . وليس معنى هذا القول إن الاستشراق يحدد بشكل أحادي الجانب ما يمكن قوله عن الشرق . بل يؤلف الاستشراق تلك الشبكة بكاملها من العلاقات التي يتحتم عليها ان تحشد كل طاقاتها لاداء المهام في أية مناسبة (وبناء على ذلك فان الشبكة المذكورة هي ملتزمة بالعمل دوما) عندما تكون تلك الوحدة المعينة « الشرق » موضع تساؤل . كيف يحدث هذا الأمر ؟ هذا ما يحاول الكتاب بيانه مثلما يحاول ان يبين بأن الحضارة الأوروبية اكتسبت قوة وهوية عن طريق طرح نفسها ضد الشرق بوصفه نوعا من الذات البديلة أو حتى الذات السفلية (التحتية) .

وعلى الصعيدين التاريخي والحضاري يوجد فارق كمي ونوعي بين الانهماك الفرنكو ــ بريطاني في الشرق ــ حتى فترة الصعود الأميركي إثر الحرب العالمية الثانية ــ وانهماك كل دولة من الدول الأوروبية والأطلسية الأخرى . فالحديث عن الاستشراق إذن ، هو التحدث بشكل رئيسي ، وان يكن غير حصري ، عن مشروع حضاري بريطاني وفرنسي ، وهو مشروع تمتد أبعاده حتى تشمل حقولا ومجالات متباعدة على امتداد الخيال ذاته : الهند كلها والليفانت بكامله ، النصوص التوراتية وأراضي التوراة ، تجارة الأفاوية والبهارات والجيوش الكولونيالية ، بالاضافة الى تقليد طويل من الاداريين الكولونياليين ، ومجموعة كاملة رائعة من الدراسات والبحوث العلمية ، وعدد لا يحصى من « الخبراء » و « الأعوان البارعين » في المشرقيات ، وكراسي استاذية للدراسات الشرقية ، ومجموعة معقدة من « الافكار » الشرقية (مثل : الاستبداد الشرقي والأبهة الشرقية والقسوة والفجور الشرقيين) ، والعديد من الشيع

---

* مقدمة كتاب **الاستشراق** للأستاذ ادوار سعيد ، الذي صدر حديثا بالانكليزية ، New York · Pantheonbooks, 1978.